احدى روايات مكسيم غوركي

الكاتب الروسي المشهور الذي يعد من زعماء الثورة الروسية الاخيرة ومن اكبر كتاب روسيا

ملفا

ذكرنا في غير هذا الموضع من هذا الجزء اننا سنطبع لهُ رواية (مريم قبل التوبة) على حدة ولذلك لم ننشرها فيه واننا سنشرع في نشر رواية جديدة . وحيث اننا نشتغل الآن بها فقد رأينا ان لا نترك هذا الجزء خلواً من رواية لما نعلمه من ولع بعض القراء بالروايات . ومن حسن الحظ اننا وقعنا قبل سفرنا من فرنسا على روايات للكاتب الروسي المشهور مكسيم غوركي وطالعنا بعضها في الطريق بين جنوى والاسكندرية . فاخترنا منها رواية (ملفا)

مكسيم غوركي وحياته العجيبة اسمه الحقيقي الكسي بشكوف ولد في مدينة نجني نوفوكورود ولا يعلم تاريخ مولده ولا احد يعلمه وانما المظنون انه في سنة ١٨٦٨ وقد مات ابوه وامه وعمره تسع سنوات فاستخدم في محل صانع احذية ثم فرّ منه واستخدم في محل مصور وانتقل منه الى باخرة استخدم فيها لغسل الصحون . ولم يبلغ الخامسة عشرة من عمره حتى كان قد عمل في جميع الحرف الا الكتابة والمطالعة . فاراد الانصباب على الدرس فسافر الى قزان ولكنه اضطر فيها ان يكون خبازاً وحمالاً وماسح احذية ومتشرداً ومتسولاً . واذ لم يقدر على الانقطاع الى الدرس عمد الى الانتحار فانتحر ولكنه نجا ولم يمت فاخذ بعد نجاته يطوف في روسيا مرافقاً للطبقات الدنيا فيها وعائشاً معيشتهم . واستمر على ذلك حتى سنة ١٨٩٢ وهي السنة التي نشر فيها اولى رواياته وعنوانها (الحب القتال) فالتفت الجمهور اليه . وفي العام التالي نشر روايته (في الظلام) فنال بها الشهرة وطيب الاحدوثة بين الادباء . ومنذ ذاك الحين جعل التأليف دأبه فطارت شهرته في الافاق وتُرجمت جميع رواياته الى جميع اللغات الاوروبية . وفي سنة ١٩٠٥ بدأت الثورة الروسية الأخيرة فقبضت عليه الحكومة الروسية بحجة انه يثير بكتاباته ونشراته افكار الشعب فسجنته في سجن القديس بطرس و بولس ولكنها لما رأت قيام العالم المتمدن

قومة واحدة لطلب الافراج عنه واطلاق سراحه تسامحت واطلقت سراحه فكانت اعقل وافضل من حكومة اسبانيا في حادثتها مع فرر

﴿ طريقته في رواياته ﴾ طريقة غوركي في رواياته وقصصه طريقة تفرد بها . فانه يجعل كلامه قاصراً على الطبقات الدنيا . فابطال جميع رواياته تقريباً انما هم لصوص ومتشردون ومهربو بضائع ومتسولون ونساء ساقطات وحمالون وبحارة وعملة الخ . ولا يخفى انه عاشرهم جميعاً وعاش معيشتهم فهو يصور اخلاقهم وعاداتهم تصويراً طبيعياً ثم ينسب اليهم اعمالاً جميلة بعضها عظيم لا يصدر الا عن العظام . وهو يريد بذلك تحبيبهم الى الناس والدلالة على قابليتهم للاصلاح وحث الحكومة والطبقات العليا على الالتفات اليهم والعناية بشؤونهم . وهو وتولستوي في هذا على اتفاق . ولكنه ونيتش على طرفي نقيض فيه .

﴿ ملفا ﴾ وأبطال رواية ملفا التي سنعربها صيادون ومتشردون وفيهم امرأة ساقطة هي اهم شخص في الرواية . وبعد هذا التمهيد نشرع في تلخيص الرواية

الفصل الاول

كان البحر ذلك اليوم يتنفس ويتنهد بينما تضغط عليه نسمات المساء ويداعبه حر الشمس . وكان على شاطئه رجل متمدداً يدعى فاسيلي لكوستر وهو وكيل مصائد تاجر السمك كر يبتشتشيكوف . وكان ينظر وهو متمدد في جهة شبح بعيد بدا في عرض البحر ويبتسم مسرة . ذلك لان القادم (ملفا) وهذا هو الزورق الذي اعتادت ان تزور عليه فاسيلي . وقد خيل اليه انه يسمع قبل وصولها اليه صوتها الرخيم وضحكتها الدرية ويرى عنقها الفتان

ولكن لم يكد يدنو الزورق حتى اجفل فاسيلي واستوى جالساً على الرمل . ذلك لانه ابصر في الزورق رجلاً مع ملفا . فمن عساه ان يكون . أتراه سريكيا ؟ كلا لان سريكيا احذق في فن التجذيف

فلم يستطع فاسيلي صبراً فصاح — من هذا

فاجفلت من صوته طيور البحر التي كانت عائمة على سطحه والتفتت كأنها تصغي اليه

فاجاب صوت من الزورق — هذا انا

فقال فاسيلي ومن معك . فكان الجواب من الزورق قهقهة شديدة

فعربد فاسيلي وصاح يا للشيطان ثم بصق من غضبه

وكان الزورق قد ازداد دنواً من الشاطىء فعاد فاسيلي الى سؤاله بنزق — من معك

فاجابته ملفا ضاحكة تمهل فستعلم

ثم ان ملفا صاحت برفيقها ان اضرب ضربة من هـذه الجهة . فضرب رفيقها البحر بمجذافه فانحذف الزورق الى الشاطىء ووثب منه شاب مسرعًا الى فاسيلي وقال له — سلام يا ابتاه

فذعر فاسيلي اذ عرف ابنه فقال هذا انت يا يا كو . وقد غصَّ بريقه حين عرفه

فتعانق الاب والابن ثلاثًا ولكن الناظر اليهما كان يرى اضطراب الأَب في هذا الملتقى على غيرموعد

ثم قال الأَب . هذا أَنت ؟ ان نفسي كانت تحدثني بقرب مقدمك . قال هذا وهو يداعب لحيته باناملـه ويحاول ان يلقي نظره الى ملفا . ولكنه كان يرى ان ابنه ناظر اليه . وكان مسرورًا بان يرى ابنه شابًا قويًا جميلاً ولكن وجود ملفا كان ينغص سروره هذا . فاخذ يلقي على ابنه السؤال تلو السؤال عن مزرعته وزوجته والاضطراب باد في وجهه

فقالت ملفا . يظهر ان سرورك بلقى ابنك جعلك في هذا الاضطراب حتى ذهلت ان تدعوه الى الكوخ ونقدم له شيئًا

فنظر فاسيلي الى ملفا فلم يرَ لها في ذلك اليوم ما كان يعهده فيها من الخفة والبشاشة الا انها كانت اجمل واغض منها في سائر الايام . وكانت في هذا الحين تطحن نوى البطيخ باسنانها البيضاء الدقيقة وعيناها الصافيتان الحادتان تتنقلان بين الأَب وابنه

اما يا كو الابن فلم يكن به شيء من الاضطراب بل كان يضحك . فقطع ابوه ضحكه ونظراتها بقوله وقد اتجه نحو الكوخ . انني راجع بعد حين فاجلسا في الظل لاذهب واستقي الماء من البئر لطبخ السمك وحسائه

ثم تناول اناءً كان على الارض بجانب كوخه وتوارى به وراء شباك الصيد المنشورة هناك

فاتجه يا كو وملفا نحو الكوخ ثم نظرت ملفا الى يا كو بحنو وقالت : قد جئت بك ايها الشاب الى ابيك فاصبحتَ عنده . فنظر يا كو الى ملفا فاتقدت عيناه وانار اتقاد هاوجهه المزين بلحية كستنائية صغيرة واجاب . نعم صرنا عنده . ما اجمل هذا المكان والبحر المحيط به . فقالت نعم ولكن كيف وجدت اباك هل رأَيت انه قد هرم . قال كلا فانني كنت اتوقع ان أَراه اشـد هرمًا وعجزًا فاذا به قوي كالسنديانة القوية . قالت منذ كم سنة لم تره . قال لما فارقنا وترك القرية كنت في السنة السابعة عشرة

ثم دخلا الكوخ وكانت البسط المبسوطة فيه قذرة فتكاد تنثن منها الاسماك المملحة

الملقاة عليها . وكان هواء الكوخ شديداً على الصدر . فجلس ياكو على جذع شجرة في الكوخ وجلست ملفا على اكياس بازائه وبينهما برميل كان يتخذه فاسيلي كمائدة . واخذا ينظران احدهما الى الآخر وهما ساكتان . ثم قالت ملفا هل تبغي ان تجد عملاً في هذه الجهات وتقيم فيها . قال لا أعلم ولكنني ارغب في ذلك اذا كنتُ أجد عملاً . قالت وفي صوتها لهجة التأكيد ستجد وانا اعدك بذلك

ثم أخذت ملفا تطيل النظر الى ياكو وتتبين ملامح وجهه . فاخذ ياكو يمسح بكم قميصه العرق الذي كان ينضح من وجهه وهو يتساءل مامعنى تلك النظرات السرية التي كانت تلقيها تلك المرأة اليه . وكانّ ملفا أدركت مافي نفسه فاخذت تضحك

ثم قالت لابدّ ان امك عهدت اليك ان تبلغ الى ابيك شيئًا غير السلام والتحية . فعبس ياكو وأجاب . نعم ولكن مامرادك بهذا السؤال . فاجابت لاشيء . واستمرت تضحك . وكان ياكو يتألم من ضحك ملفا كلما ضحكت ويتساءل هل هذا غنج ودلال ام شيء آخر . ثم تذكر مااوصته به امه فصرف وجهه عن تلك المرأة واصبح ينفر منها .

ان امه قالت له قبل رحيله الى ابيه وهي تبكي : قل لابيك اكراماً للمسيح لاتتركني وحدي . لقد مضت خمس سنوات وهو هناك وانا هنا وحدي . فقل له ان الهرم بدأ يدبّ اليّ وانني اكاد اصبح عجوزا . قل له اكراماً لله انها على الدوام تعيش وحدها وتشتغل وحدها .

ولما زودته امه بهذه الوصية في آخر القرية حين خرجت لوداعه لم يبال كثيراً بهذا الكلام . اما الآن وقد رأى ملفا وهي تضحك وتستمر في الضحك فقد احسّ بحنان شديد وشفقة على امه وكاد يثب على ملفا ويبينها

ولكن هنا دخل فاسيلي وفي احدى يديه سكين وفي الأخرى سمكة كبيرة تختلج وقال هاءنذا ولكن عليّ ان اوقد النار اولاً ثم اعود اليكما . ثم قال لياكو وهو يخفي اضطرابه قد شببت وصرت جميلاً الآن ياياكو . ثم خرج

اما ملفا فانها استمرت تطيل النظر الى ياكو وياكو يغض طرفه وكانت لاتزال تطحن نوى البطيخ باسنانها الجميلة . فاخذ ياكو يقول في نفسه انهما كليهما اي فاسيلي وملفا يتغذيان جيداً ههنا لان دلائل العافية والصحة على وجهيهما . ولكنه احس بضيق في نفسه من هذا السكوت فنهض وقال انني ذاهب لاجيء بكيسي الذي تركته في الزورق ثم خرج دون ان يلتفت الى ملفا .

وفي هذا الحين عاد فاسيلي وجلس في المكان الذي كان ابنه جالساً فيه ثم الوى نحو

ملفا وقال بلهجة الرجل المستاء : كيف قدمت معه الى هنا . وماذا اقول له . وكيف تكونين معي هنا بازائه .

فاجابت ملفا كانها تمزح — لقد جئت كما ترى .

قال ماهذا بجواب فانك تعلمين انني متزوج وزوجتي في المنزل . وهذا ابنها . فلا افهم كيف فعلت ذلك .

قالت وماذا تريد ان افهم من كلامك هذا . هل تظن ان وجودي هنا يهمني . انني احب ان تعلم انني لست بحاجة الى احد

ثم انها القت نحوه نظرة غضب وانفة . ونقلت بعد ذلك ملامح وجهها من الغضب الى الانبساط والضحك وقالت : كم جاش الضحك في نفسي حين رأيتك امامه مضطرباً هذا الاضطراب . ولكني من حسن حظك قد ملكت نفسي

فقال ما كان ينقص غير هذا

ثم انه سمع وقع قدمي ابنه قادماً فسكت . فدخل يا كو يتأبط كيس ملابسه ونظر شزراً الى ملفا حين دخوله . فلما جلس قال له ابوه وهو يبتسم تكلفاً . هاقد اتيت اليّ . ولكن ما الذي حملك على المجيء الى هنا

فاجاب يا كو لقد كتبنا اليك فلم تجاوبنا . قال ابوه لم يصلني كتابكم وانني لفي عجب من ذلك . فقال يا كو فانت تجهل اذاً حالتنا . ثم نظر الى ابيه نظرة حذر وشك . فاجاب فاسيلي لاشك في انني اجهلها لانه لم يردني منكم كتاب .

فاخذ يا كو حينئذ يشرح لابيه حالتهم في المزرعة (١) فقال له ان باب الرزق اصبح ضيقاً فيها . فان الفرس مات وما كان لديهم من القمح نفد منذ شهر فبراير وكادت البقرة تموت ايضاً لان علفها قد نفد ايضاً فباعوا ثلاثة خرفان وابتاعوا بثمنها علفاً ثم كتب هو الى ابيه كتاباً يطلعه فيه على رغبته في السفر اليه ليعمل ويكتسب مايسد حاجتهم

---

(١) في الاصل (العزبة) وهذا هو اسم المزرعة في روسيا ومن الغرابة ان يكون هو اسمها ايضاً في مصر

صورة البطاقات (كارت) التي صوّرت في الاستانة بعد اعلان الدستور ترمز الى الحوادث السياسية . وفي وسطها رسم عزت (باشا) العابد (راجع تفسير رسوم البطاقات في الصفحة ٧٨)